البعد المغاربي للثورة الجزائرية والإستعمار الفرنسي

أ/ مختار هواري

المركز الجامعي بالوادي

ملخص:

كانت الثورة الجزائرية وليدة مخاض عسير عرفته الحركة التحررية في المغرب العربي، وكانت ثمرة نضال سياسي وعسكري ضحى الجزائريون فيه تضحيات جسام

مقدمة :

ان الثورة الجزائرية لم تنطلق من فراغ ولم تولد مع الإنفجار العظيم في الفاتح من نوفمبر ، بل كانت امتدادا لنضال طويل كان محصلة المقاومة المسلحة والسياسية ، والحقيقة أن الثورة لم تهدف إلى هدم أركان الإستعمار فحسب ، بل حملت أبعادا مغاربية وعربية وإسلامية وتعدتها إلى أبعاد إنسانية فسعت لتجسيدها . وسنحاول التركيز على البعد المغاربي للثورة الجزائرية والإستعمار الفرنسي لإعطائه الحق الذي يستحقه ، ولعل السؤال الذي نطرحه في هذا المقام هو التالي : ما مدى تأثير الثورة الجزائرية في الوحدة المغاربية ؟ وما هو رد الفعل الإستعماري المضاد ؟.

1- الثورة الجزائرية والتضامن المغاربي :

إن البعد المغاربي كان في نظر الثورة الجزائرية بعدا إستراتيجيا وضرورة فرضتها الجغرافيا والأبعاد الحضارية والتاريخ والمصير المشترك ، فالمغرب العربي لم يكن في يوم من الأيام فاعلا في التاريخ إلا بوحدته ، فلم يغب عن أذهان الثوار عظمة تاريخ المغرب العربي إبان عهد الموحدين . فقد علقت المجاهد في شهر أفريل 1958حول الوحدة المغاربية : " إن فكرة الوحدة المغاربية تجد أصالتها في تاريخنا المجيد الذي جسدها في مجموعة محطات

عظيمة مثلما قام به المرابطون وخاصة الموحدون..." (**1**) ، وأن مصير المغرب العربي مصيرا مشتركا . فكما كان احتلال الجزائر سنة 1830 منعرجا حاسما عبد الطريق أمام الإستعمار الفرنسي لفرض هيمنته على تونس عام 1881 ثم المغرب الأقصى ، فمن شأنه أن يتكرر مع كل قطر من أقطار المغرب العربي. وقد اعتبرت وثيقة الصومام : " استقلال المغرب وتونس بدون استقلال الجزائر لغوا لا قيمة له ، فالتونسيون والمغاربة لم ينسوا أن احتلال فرنسا لبلديهما قد جاء عقب احتلال الجزائر ، وأكدت وثيقة الصومام أنه لخطأ فاحش أن يعتقد أحد أن باستطاعة المغرب وتونس التمتع بالإستقلال الحقيقي إذا ما بقيت الجزائر محتلة من طرف فرنسا " (**2**) .

لقد تبلور الوعي المغاربي لدى الشعب الجزائري والحركة الوطنية ، فلم يعتبر الجزائريون أنفسهم أغرابا عن الأقطار المغاربية وناضلوا متجاهلين القطرية . ولعل من الأمثلة عائلة السنوسي بليبيا ، ودور الثعالبي في تونس ، ونجم شمال إفريقيا الذي تشكل من الجالية المغاربية في فرنسا . فقد ورد في رسالة موجهة بتاريخ 07 سبتمبر 1927 من الجيلالي شبيلا الذي كان يشغل في ذلك الحين منصب سكرتير عام للحزب إلى مراسل مغربي يقول له فيها : " إن هذه الجمعية أسست منذ حوالي العام بفضل الجهود التي بذلها أبناء المغرب والجزائر وتونس ، وقد تمكنت خلال مدة قصيرة من تحقيق منجزات هامة يسجلها التاريخ " (**3**) .

لقد سعت الحركة الوطنية الجزائرية لتفعيل الكفاح المغاربي . ففي الأربعينات تم تأسيس مكتب المغرب العربي ثم لجنة تحرير المغرب العربي التي أقرت التمسك بالإستقلال التام لكافة أقطار المغرب ، وأن حصول كل قطر على استقلاله لا يسقط عن القطرين الآخرين واجبه في مواصلة الكفاح لتحرير نفسه ، كما رفض فكرة السيادة المزدوجة التي كانت فرنسا تلوح بها (**4**) .

غير أن المستجدات التي حدثت بالحزب العتيد حركة انتصار الحريات الديمقراطية بين 1953-1954 وانقسامه وصراع أجنحته حال دون قيام الكفاح المسلح في بداية الخمسينات بالجزائر ، في حين تمكنت كل من تونس والمغرب من الشروع في العمليات العسكرية ، وتقدمت بذلك في النضال المسلح عن الجزائر رغم ضخامة

تضحيات الشعب الجزائري إبان المقاومة المسلحة والسياسية ، وتأثر الشباب الثوري فسارع إلى إقامة جبهة التحرير الوطني للحاق بالركب بمعية الأشقاء في المغرب العربي . ولقد تجرعوا مرارة التأخر ويتجلى ذلك من خلال بيان أول نوفمبر الذي ورد فيه : " إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد . فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال إفريقيا ، ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة كنا أول الداعين إلى الوحدة في العمل . هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاث " (**5**) .

لذلك، لم تدخر الثورة وسعا في دفع عجلة التضامن المغاربي ، فلم تكتف بالشعارات السياسية والبيانات بل تجسدت ميدانيا من خلال هجومات 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني التي تزامنت والعمليات الفدائية في المغرب الأقصى للتضامن مع السلطان محمد الخامس في الذكرى الثانية لنفيه إلى جزيرة مدغشقر بسبب موقفه المشرف مع الإستقلال و الحركة الوطنية الإستقلالية المغربية بزعامة علال الفاسي وحزب الإستقلال المغربي . وقد كتب إدوارد باهر قائلا : " لقد كانت أحداث العشرين أوت تعبيرا عن الإحتفال بالذكرى الثانية لإلقاء القبض على سلطان المغرب الأقصى... وبينما شهدت مدينة وادي زم في البلد الأخير تقتيل حوالي تسعين أوروبيا ، فإن العملية قد أخذت نفس الحجم تقريبا في ناحية سكيكدة والعالية "(**6**) .

لقد سبق هذه العمليات دور طلائعي ، فالمقاومة التونسية كانت تجد في الشرق الجزائري سندا . ويذكر في هذا الشأن العقيد مصطفى بن عودة بأن بعض الجزائريين تجندوا في صفوف المقاومة التونسية:

"... في الوقت الذي كان فيه (الفلاقة) في تونس يواصلون الثورة ، كانت منطقة سوق أهراس تعيش أحداث الثورة مع تونس حتى أن الثوار التونسيين الذين كانوا يسمونهم باسم الفلاقة كانوا يلجأون إلى الجزائر وبالضبط إلى ناحية سوق أهراس ، وكانت لهم اتصالات بالسيد باجي المختار – رحمه الله – وكان يقدم لهم المساعدة والتموين بالسلاح والذخيرة والأفراد حتى أن بعض الجزائريين كانوا التحقوا بصفوف الفلاقة ومن بينهم لزهر شريط – رحمه الله – والسيد العقبي الذي كان مسؤلا عن الفداء داخل تونس والذي يكون قد قتل العقيد تونسي بالقصبة

بتونس..." (7) . لقد أكد هذا التضامن على عمق الشعور المغاربي في صفوف الشعوب المغاربية التي تطلعت لإقامة جبهة تحرير موحدة وفعالة بين الأقطار المغاربية الثلاثة . ورغم وجود بعض العراقيل الواقعية بين الحركات التحررية في الأقطار الثلاث لاختلاف طبيعة الوجود الاستعماري (بين حماية واستعمار مباشر) والاختلافات الأيديولوجية ، إلا أن الثورة الجزائرية كانت تدفع إلى العمل المغاربي إيمانا منها بتطلعات الشعوب. حيث استطاعت تجاوز القطرية وأثرت في مسار الأحداث في تونس . فقد انقسم الحزب الدستوري التونسي بسبب تأثر صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الذي كان يدعو إلى تبني النموذج الجزائري الداعي إلى الإستقلال الكامل دون تنازلات مؤلمة لصالح فرنسا إذ صرح هذا الأخير قائلا : " إن التنازلات التي قدمت لتونس في الإتفاقية تمثل خطوة للوراء ومجرد مناورة استعمارية ترمي الى تكريس نظام الحماية ، ومنح فرنسا التي أصبحت تلاقي مقاومة شديدة في كامل بلدان المغرب العربي متسعا من الوقت لاسترجاع أنفاسها وتسخير كل جهودها العسكرية لقمع كفاح الشعب الجزائري والمغربي ..."(**8**) لقد رفض أنصار صالح بن يوسف نداءات الحبيب بورقيبة لوضع السلاح و التحق منهم كثيرون بصفوف الثوار الجزائريين .

لقد أدركت الثورة الجزائرية أبعاد المشروع الفرنسي في تونس والمغرب العربي منذ بدء المفاوضات الفرنسية – التونسية التي انطلقت في 18 أوت 1954 والتي انتهت باستقلال تونس في 20 مارس 1956 وإطلاق سراح محمد الخامس سنة 1955 والذي حولته إلى مدينة نيس الفرنسية واتفقت معه على الخطوط الأساسية لاستقلال المغرب عن طريق التفاوض ، وانتهى باستقلال مراكش في 02 مارس 1956 . ففرنسا التي أنهكتها الثورة الجزائرية تنازلت عن تونس والمغرب الأقصى لتتمسك بالجزائر وألا تحارب في الجبهات الثلاث . وقد تفطن الثوار لذلك في مؤتمر الصومام إذ جاء في وثيقته تحليلا لهذه السياسة : " إن التغير المفاجئ في سلوك الحكومة الإستعمارية التي تخلت عن الجمود وأوغلت في طريق البحث عن حل عاجل إنما دعت إليه أسباب إستراتيجية هي :

- منع تكوين جبهة ثانية حقيقية بإنهاء الإتحاد بين الكفاح المسلح في الريف المغربي وفي الجزائر .
- إلغاء وحدة الكفاح في بلدان شمال إفريقيا الثلاث .
- عزل الثورة الجزائرية التي كانت صبغتها الشعبية تجعلها أشد خطرا " (**9**).

لكن جميع تقديرات المستعمرين قد خابت ، فقد كان الغرض من المفاوضات التي أجريت على حدى هو مخادعة بعض زعماء البلدين الشقيقين وإغرائهم ودفعهم إلى التخلي عن علم أو عن جهل عن الميدان الحقيقي للكفاح الثوري المسلح .

إن الإستعمار الفرنسي يجهل أن القضية الجزائرية مندمجة في القضية المغربية وفي القضية التونسية بحيث أن القضايا الثلاث لا تكون إلا قضية واحدة . والواقع أن استقلال المغرب وتونس دون استقلال الجزائر لغو ، فالثورة حللت مسار تاريخ الحركة الإستعمارية وأدركت أن احتلال بلادها في ظل صمت أو تجاهل الأشقاء عام 1830 أدى الى احتلال المنطقة بأكملها . فالإستعمار الفرنسي ببقائه محتلا للجزائر سيشكل خطرا لا محالة على تونس والمغرب ويمكنه التراجع عما اعتبره تنازلات لصالح كل من تونس والمغرب . وهكذا نشطت دبلوماسية الثورة الجزائرية على الصعيد المغاربي إذ يذكر أحمد توفيق المدني أنه بناء على طلب عبد الحفيظ بوصوف ، انتقل مع الأمين دباغين يوم 18 فيفري 1956 للإتصال برجال المقاومة وحزب الإستقلال . وقد خاطب المهدي بن بركة ووضح بعد الثورة الجزائرية قائلا : " إننا لا نعمل إلا في دائرة الإسلام والعروبة ووحدة المغرب العربي ، وفي سبيل حرية الأمم واستقلالها قاطبة..." (**10**) . ويذكر توفيق المدني أنه حينما التقى محمد الخامس تعهد له بتقديم الثمن المطلوب لشراء الأسلحة قائلا: " إنه اشتراك مني خاصا في الجهاد وقد بر بوعده " (**11**).

وقد عرض بورقيبة ومحمد الخامس إمكانية قيامهما بوساطة بين فرنسا والثوار الجزائريين ، لذلك التقى الزعماء الخمس بالمغرب وهم : محمد بوضياف ، وأحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد ومصطفى الأشرف للتشاور مع محمد الخامس ثم السفر إلى تونس حيث من المزمع أن يعقد لقاء ثلاثي بين وفد جبهة

التحرير والحكومتين التونسية والمغربية لتوحيد مواقف الأطراف الثلاث ، غير أن ذلك لم يكتب له النجاح بعد عملية القرصنة الجوية الفرنسية للزعماء الخمس بتاريخ 22 أكتوبر 1956 . ورغم ذلك لم تتأثر الدبلوماسية الجزائرية بل تعرت فرنسا وظهرت على حقيقتها الإجرامية باعتدائها على حرمة الطيران المدني والذي يحفظه القانون الدولي من أي مس، واحتجت تونس على ذلك وسحبت سفيرها من باريس ، كما احتجت مراكش أيضا و اعتبرت القرصنة الجوية الفرنسية مساسا بسيادتها و كرامتها ، فازداد التضامن الشعبي المغاربي مع الثورة الجزائرية . و تفاعل أيضا الشعب الليبي وحكومته مع الثورة الجزائرية فيذكر توفيق المدني قائلا :" أن رئيس الحكومة الليبي مصطفى بن حليم اتفق معنا في قضية السلاح قائلا اعتبروا المطارات بين أيديكم الآن . فمتى أتم الأخصائيون المصريون إصلاحها فهي مطارات جزائرية ، وما علينا إن علمت فرنسا بذلك . أما السلاح الجزائري فقد أصدرت أمري لقائد الجيش وهو أصدر أمره لقائد الحدود بأن يدخل حرا طليقا لا يعترضه معترضا..." (**12**) . وبذلك تمكنت الثورة الجزائرية من تحطيم الطوق الذي حاولت فرنسا فرضه على الجزائر وقد تعزز وضع الثورة الجزائرية وانتصاراتها الدبلوماسية والعسكرية بالموقف المشرف لحزب الإستقلال المغربي الذي أصدر توصية بتاريخ 2 مارس 1958 بضرورة السعي لتأسيس اتحاد حقيقي . وتنفيذا لذلك انعقدت اجتماعات بين قادة حزب الإستقلال المغربي وقادة الحزب الدستوري بتونس وقد توجه السيدان المحجوب بن الصديق وعبد الرحمان اليوسفي الى القاهرة للقيام باتصال مع جبهة التحرير الوطني وقد انعقدت ندوة طنجة بقصر مارشال من 27 إلى 30 أفريل 1958 تحت رئاسة السيد علال الفاسي ومن الحاضرين:

عن تونس: الباهي الأدغم ، الطيب مهيري، عبد الله فرحات، عبد المجيد شاكر، أحمد تليلي،وعلي بهلوان.

عن الجزائر: فرحات عباس، عبد الحميد مهري ، عبد الحفيظ بوصوف، أحمد فرنسيس، أحمد بومنجل، ورشيد قايد.

عن المغرب: علال الفاسي، أحمد بلا فريج، عبد الرحمان بوعبيد، المهدي بن بركة، بوبكر القادري.

وقد كانت قرارات مؤتمر طنجة متماشية مع الروح المغاربية التي تضمنتها فلسفة ومواثيق الثورة الجزائرية وأعطت بذلك لها الثقة في مواصلة الإنتصارات السياسية والعسكرية (**13**)إذ أقر مؤتمر طنجة ما يلي(**14**) :

- إقرار مبدأ تقديم مساعدة مالية للجزائر في حربها .

- التأكيد على حق الشعب الجزائري الثابت في السيادة والإستقلال .

- قرار حول الإعانة التي تمنحها بعض الدول الغربية لفرنسا لمجابهة حرب الجزائر خاصة دعم الحلف الأطلسي .

- المطالبة بإلحاح على أن تكف القوات الإستعمارية في الجزائر عن استعمال التراب المغربي وتونس كقاعدة للعدوان ضد الشعب الجزائري .

كان مؤتمر طنجة منعرجا في مسار الوحدة المغاربية ،ولعبت الثورة الجزائرية من خلال بسالتها دبلوماسيا وعسكريا إلى إعطاء قدرا كبيرا من الشجاعة لتجسيد الوحدة المغاربية . ولقد قال رئيس المؤتمر علال الفاسي : " إن الفضل يعود للثوار الجزائريين . لقد كان ثباتهم في الكفاح خير باعث للحقيقة المغربية من مرقدها "(**15**) . فالثورة التحريرية هدت أركان الإستعمار الفرنسي وشوهت صورته ، وبالمقابل كان الثوار أكثر وعيا بأهمية الوحدة المغاربية حيث ذهب عبد الحميد مهري إلى أن : " هذه الوحدة المغاربية تسعى للتخلص من الإستعمار في الجزائر وعلى ما تبقى من مظاهر السيطرة الإستعمارية في الأقطار الشقيقة ...إن مؤتمر وحدة المغرب العربي ليعد حدا فاصلا بين المرحلة التي كان الإستعمار الفرنسي يواجه فيها كل قطر من أقطار المغرب العربي على حدى والمرحلة التي سيواجه فيها المغرب العربي الموحد الكتلة المتراصة التي تمثل ثلاثين مليونا من المكافحين الذين يريدون الحرية جمعاء ... إن وحدة المغرب العربي ضرورة ملحة لاتخاذ الوسائل الناجعة للتخلص في الجزائر من الإستعمار الفرنسي ، وهي أيضا ضرورة للقضاء على كل ما تبقى من مظاهر السيطرة الإستعمارية في الأقطار الشقيقة " (**16**).

إن مؤتمر طنجة تمكن من كسر المحاولات الفرنسية الرامية إلى عزل تونس والمغرب الأقصى عن النضال الجزائري . وأدركت الجزائر أن المساومة الفرنسية للأشقاء لم يكتب لها النجاح . فقد جاء في المجاهد عدد 30

بتاريخ 10 أكتوبر 1958 :" إن الجزائر في هذا الكفاح لم تعد وحدها ، وعلى المسؤولين الفرنسيين أن يفكروا . هناك خلفنا تونس والمغرب الذي ارتبط مصيرها بمصيرنا عبر العصور ، ومن المنطقي أن تكون الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي ، وأن تبني مع هذين البلدين إتحاد إفريقيا . فندوة طنجة أصبحت تاريخية ، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ستبقى وفية لروح هذه الندوة لأنها مقتنعة كل الإقتناع أنها الحل الوحيد لتقديم حلول ملائمة للقضايا المطروحة علينا ، فهي تفتح أمامنا آفاقا على مستوى العالم العصري" (**17**).

تلك هي أقصى ما تمكنت الدول المغاربية من تحقيقه ، لكنها ما لبثت أن اصطدمت بالمصالح القطرية والضغوطات والإغراءات الأجنبية . فبعد انعقاد مؤتمر المهدية بتونس من 17إلى 20 جوان 1958 والذي بحث سبل تنفيذ مؤتمر طنجة ، بدأ الفتور يتجلى بسبب الخلافات الحدودية أو بسبب مد أنبوب البترول من الجزائر عبر الأراضي التونسية بالإضافة إلى الضغوط الممارسة على الحكومات المغاربية .

2– رد الفعل الإستعماري لعرقلة مسار الوحدة والتضامن المغاربي:

إن سياسة فرق تسد منهج استعماري اتبع من طرف الإستعمار الحديث . وقد سعت فرنسا إلى إحداث الشرخ في التضامن المغاربي لتتمكن من شعوبها . ولم تكن السياسة الفرنسية وليدة فترة الثورة التحريرية ، بل الدارس للتاريخ يدرك كيف استطاعت فرنسا التمكن من المغرب العربي حيث عزلت الأقطار المغاربية بإثارة الشرخ بينها . فقد أغرت باي تونس ووعدته بمنحه مناطق من الشرق الجزائري حتى تستفيد من وقوفه على الحياد في قضية احتلال الجزائر عام 1830. كما استعملت سياسة الضغط والإكراه ضد مراكش لإجهاض مقاومة الأمير عبد القادر ، لأنها كانت تخشى من قيام تحالف مغاربي متين ضد عدو مشترك مما أدى بها إلى الضغط والعدوان على سلطان المغرب في معركة إزلي في 14 أوت 1844 وفرضت على مراكش معاهدة طنجة في 10 سبتمبر 1844 ، مما جعل المغرب يكف عن مساعدة الأمير.وقد كتب الأمير عبد القادر إلى السلطان المغربي يقول: " إن أصبحت بلاد المغرب الأوسط في يد دولة فرنسا ، فكيف تأمن على بلادك ؟ وما الذي يمنعها منها ؟"(**18**) .

وهو الذي حدث لاحقا وتحقق بذلك المثل العربي القائل: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) . لذلك كانت الشعوب المغاربية على الأقل متفطنة لخطورة التمزق والقطرية الضيقة مدركة أهمية التضامن المغاربي . فإن نجحت فرنسا في مشاريعها خلال القرن التاسع عشر إلا أن مشاريعها باءت في معظمها بالفشل أمام التلاحم الشعبي المغاربي. ومن أهم الأساليب التي انتهجتها :

– إختطاف طائرة الزعماء الخمس : إن الإنجازات التي حققتها الثورة في مؤتمر الصومام واندهاش فرنسا لوثيقة الصومام وقراراته الدقيقة من الطرح والتحليل جعلها تدرك مدى حنكة قادة الثورة ، وخشيت من تحركهم في الفضاء المغاربي خوفا من نشر الفلسفة التحررية لجبهة التحرير الرافضة للتنازلات التي تخدم المصالح الإمبريالية. وهو ما حققته فرنسا في اتفاقياتها مع تونس والمغرب بعد استقلالهما من خلال حصولها على القواعد العسكرية خاصة في تونس . فبورقيبة ذاته صرح إثر اندلاع الكفاح المسلح في تونس قائلا : " ...أن المسألة ليست في الإختيار بين الإستقلال التونسي والتصرف الإستعماري بل الإختيار بين الإستقلال تشيده فرنسا وتشرف عليه وتكون دليله ورائده يزدهر معه تعاون حر وتحافظ به على المصالح الجوهرية التي تهم فرنسا والعالم الحر..." (**19**).

وأمام خطورة المواقف الراديكالية لقادة الثورة أقدمت فرنسا على قرصنة جوية منافية للأعراف الدولية وألقت القبض على الزعماء الخمس ، فقد أذاع راديو مونتيكارلو لنبأ جاء فيه : " إن السلطات الفرنسية قد ألقت القبض على الزعماء الجزائريين الخمسة الذين ذهبوا من المغرب إلى تونس من أجل المشاركة في مؤتمر سياسي وأنزلتهم في مدينة الجزائر حيث سارت بهم مقيدين إلى السجن..." (**20**) .

لم يكن هدف فرنسا من هذه القرصنة ضرب رأس الثورة فحسب ، بل كان يهدف إلى وقف خطر الأفكار الثورية لجبهة التحرير . فالزعماء الخمس نقلوا إلى تونس لحضور مؤتمر يهدف إلى تأسيس إتحاد فيدرالي بين تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، على أن يساعد هذا الإتحاد على حل المشكل الجزائري . وبعد الاتصالات التونسية رحبت فرنسا بالفكرة لكن جبهة التحرير قبلت بتحفظ مع عدم الالتزام بأي شئ من شأنه أن يلحق

الضرر بالثورة ومستقبلها (**21**) . إن ذلك التحفظ وقوة الحجة والإقناع الذي امتازت به الدبلوماسية الجزائرية جعل فرنسا تخشى من إفساد جبهة التحرير لمخططاتها في المنطقة.

– الأسلاك الشائكة : لقد حاولت فرنسا خنق الثورة وعزلها عن الأشقاء لقطع التواصل الشعبي بين الأقطار المغاربية . فأقامت خط موريس الذي ينسب لوزير الدفاع أندري ماجينو موريس ويمتد على مسافة 460كلم من عنابة إلى وادي سوف مع الحدود التونسية ، ومن مرسى بن مهيدي إلى عين الصفراء بطول 750كلم على الحدود الغربية . وقد عزز بخط ثاني أنشأه شال سنة 1958 متوازيا مع خط موريس مجهز بالرادارات والأضواء الكاشفة والألغام المزروعة . إن الأسلاك الشائكة لا أحد ينكر من كونها موجهة ضد جيش التحرير حتى لا يتمكن من تسليح نفسه وغلق المنافذ عليه . ولكن ما هو خفي يكمن في خشية فرنسا من الزحف الثوري للثورة الجزائرية إلى الأقطار الشقيقة خاصة بعد انقسام الحزب الدستوري التونسي إلى أنصار بورقيبة المتعاون مع فرنسا وفق سياسة (خذ وطالب) وبين أنصار صالح بن يوسف الدي يؤمن بطرح جبهة التحرير الوطني القاضي برفض التنازلات لصالح فرنسا. لذلك نجد أن معظم أنصار صالح بن يوسف رفضوا تسليم أسلحتهم وخاصة في الجنوب التونسي والتحقوا بالثورة الجزائرية (**22**). وهو ما جعل الإستعمار الفرنسي يخشى من المد الثوري لجيش التحرير خاصة بعد التزايد الملفت للإنتباه لجيش التحرير في الحدود التونسية والمغربية .

– مجزرة ساقية سيدي يوسف : أمام الزحف الثوري والإنتصارات التي حققها جيش التحرير رغم الأسلاك الشائكة المكهربة التي لم تحد في إرادة جيش التحرير والذي تمكن من وضع استراتيجية محكمة مكن من تجاوز عقبة خط موريس وشال ، اعترفت جريدة لوموند بتاريخ 9 جانفي 1958 بفشل الخطة العسكرية : "... ترى الأوساط العسكرية الفرنسية أن عدد جنود جيش التحرير الوطني قد تضاعف وكذلك أسلحته ، ويستفاد أن قسما من هذه الأسلحة التي ظهرت في المعارك أخيرا قد اجتاز موريس بعد أن تم بناؤه "(**23**) .

وبذلك فقدت فرنسا سياسة ضبط النفس وأقدمت على مجزرة ساقية سيدي يوسف التونسية فقام الجيش الفرنسي يوم 08 فيفري 1958 بشن هجوم جوي على ساقية سيدي يوسف نتج عنه وفاة ما لا يقل عن 75 شهيدا وإصابة 100 شخص آخر بجروح (**24**). وكان الهدف منه تخويف تونس وإنذارها بالدخول إلى أراضيها ومتابعة الثوار الجزائريين ، وإرهاب الشعب التونسي لكي يتوقف عن تقديم المساعدات للثوار رغم إدراك فرنسا لمخاطر هذا العمل على الصعيد الدبلوماسي مما يجعلها في عزلة دبلوماسية ويعرض العلاقات التونسية _ الفرنسية إلى انسداد ، وهو ما يعزز فكرة ارهاب الشعب التونسي للحيلولة دون تقديم المساعدة لجبهة التحرير ولدفع الحكومة التونسية للتدخل لوقف العمليات العسكرية التي تنطلق من أراضيها كما تدعي ، وقد تأسفت فرنسا واعتبرتها غلطة مؤسفة جسدها الإعتذار الذي قدمه كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا يوم 11فيفري 1958 ، غير أن هذا العمل الإجرامي عزز من التلاحم الشعبي وامتزجت بذلك دماء الجزائريين بدماء التونسيين مما سيؤجج الرفض الشعبي التونسي للوجود الفرنسي في القواعد المقامة في الأراضي التونسية (مظاهرات بنزرت) .

– الحكومات المغاربية بين الضغط والإغراء : لقد كانت حكومتا تونس والمغرب تتعرضان للضغوط لذلك فرضت رقابة على جيش التحرير الذي أصبح يتحرك بصعوبة .فقد رابطت القوات المسلحة المراكشية في منطقة فجيج لتعترض عبور المقاومة الجزائرية . و شكا بوصوف في وثيقة أرسلها في 01 أكتوبر 1958 من عمل القوات المسلحة المراكشية . فتمت عدة اجتماعات لإيجاد الحل نذكر منها إجتماع 08 أفريل 1958بالرباط بين محمد بن بركة وبصري من الجانب المغربي ومعاشو وقادري حسين والشيخ خير الدين من الجانب الجزائري غير أنها باءت بالفشل (**25**).

كما أن الحكومة التونسية لم تسلم من الضغط الفرنسي ،وكمثال على ذلك نذكر أنه بعد أن تمكن جيش التحرير من إسقاط طيار فرنسي والذي اعتقلته قوات جيش التحرير بعد أن سقطت طائرته فوق

الأرض التونسية ، ادعت فرنسا بأن العمليات العسكرية تتم من التراب التونسي .مما جعل الحكومة التونسية تتحرك في هذا الاتجاه وتضغط على الحكومة المؤقتة . هذه الأخيرة قبلت بتسليم الطيار للحكومة التونسية وهو ما أحدث أزمة بين الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان التي اعتبرت هذا التدبير فاض عما يتسع له الصدر، وقدموا استقالتهم إلى الرئيس فرحات عباس الذي رفضها (**26**).

كما ضغطت الحكومة التونسية على حركة تسليح جيش التحرير بدعوى رفض وجود دولة في دولة ، فأقدمت في شهر جوان 1958على وضع يدها على 5070بندقية و 2037 بندقية رشاشة و 2037 مسدسا رشاشا و20 بازوكا و 750 رشاشا و 1030 مدفع هاون و10 ملايين خرتوشة .

كما لم تسلم الحكومة التونسية من الضغوطات الفرنسية بعد أن أوقفت فرنسا في 12 جوان 1962 مفاوضات إيفيان الأولى أملا في تدخل الحكومة التونسية للضغط على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية حتى تقديم تنازلات لها.

كما حاولت فرنسا استخدام أسلوب الإغراء فحاولت إبرام صفقة مع تونس يتم بموجبها مد أنابيب النفط الجزائري عبر الأراضي التونسية من حقل (إيجلي) الجزائري وهو ما سيجعل تونس تستفيد من مبالغ مالية هامة ، وكاد ذلك أن يؤدي إلى أزمة بين جبهة التحرير والحكومة التونسية فكتبت المجاهد افتتاحية ملتهبة بعنوان (الخبز المسموم) وهو ما تسبب في حجز العدد الموالي أي العدد 28 من المطبعة (**27**).

خـــاتمة:

مما تقدم يمكن استخلاص بعض النتائج حول البعد التضامني المغاربي:

- أن البعد المغاربي كان نتاج نضال شعبي تبلور مع الممارسات الإستعمارية الفرنسية منذ دخول الإستعمار الى المنطقة عام 1830 ولم يكن وليد الخمسينات من القرن العشرين.

- أن العمل المسلح والتخلص من عقدة الخوف بعد الضربات الموجهة من طرف الثوار لفرنسا المثخنة بأذيال العار والهزيمة أثناء الحرب العالمية الثانية والواقع الدولي بعدها، شجع الحركات الوطنية المغاربية والنخب السياسية على الخروج من دائرة الأماني والتصريحات إلى العمل الملموس .
- أن الشعوب المغاربية كانت أكثر وعيا وتشبثا بالتضامن المغاربي ، فشكلت ضغطا على القادة السياسيين جعلهم يسايرون التيار الشعبي إما تحقيقا لمكاسب سياسية كاستثمار بورقيبة مثلا لأحداث ساقية سيدي يوسف لتأجيج الرفض الشعبي ضد القواعد العسكرية الفرنسية لاستكمال الاستقلال ، أو خوفا من الضغط الشعبي والسعي لاستمالته حتى لا يخرج على خط السياسيين . فبورقيبة كان يسعى لكسب الجماهير التونسية لكي لا تساير الأفكار اليوسفية .
- أن التضامن المغاربي رغم أنه لم يحقق الوحدة السياسية المغاربية رغم مؤتمر طنجة ومؤتمر المهدية بتونس إلا أنه مكن من تحرير الأقطار المغاربية . فبفضل تزامن العمل المسلح في فترة متقاربة في الأقطار المغاربية كان له الأثر في إضعاف الجيش الفرنسي . وبقيام الثورة التحريرية في 01 نوفمبر 1954 دفعت فرنسا إلى مفاوضة تونس والمغرب من أجل التفرغ للقضاء على الثورة ، ثم أن استكمال تونس والمغرب لاستقلالهما جاء ثمرة الاستغلال الأمثل للعمل الثوري الراديكالي للثورة الجزائرية . وهو ما هدد فرنسا التي سارعت الى سحب قواتها من القواعد العسكرية في تونس والمغرب حفاظا على علاقاتها مع أنظمتها التي تراها أنظمة متعاونة معتدلة .
- أن التضامن المغاربي واجهته صعوبات جمة لاختلاف طبيعة الاستعمار (بين حماية واستعمار عسكري) والإختلاف الأيديولوجية وكذا الضغوطات والإغراءات الإستعمارية ، لذلك مرت بفترة عسيرة في العلاقات المغاربية أثناء حرب التحرير الجزائرية .

- أن الإنجازات التاريخية التي تحققت أثناء العمل المسلح مثل قرارات مؤتمر طنجة جديرة بأن تكون لبنة أساسية لأي توجه وحدوي مغاربي .
- أن التضامن المغاربي كان مطمحا مشروعا ولا يزال . فبفضله تحررت البلاد المغاربية حينما تمكنت الشعوب من إبداء رأيها أثناء العمل المسلح ، ومارست ضغطا على الزعامات السياسية وهذا قد يدفعنا إلى فهم واقعنا اليوم والذي لم نستطع فيه إقامة اتحاد مغاربي رغم مرور أربعة عقود على استعادة استقلالنا . فماذا لو استشيرت الشعوب المغاربية لتقرير مصيرها حول الوحدة المغاربية بكل حرية دون إكراه من الأنظمة القائمة . فهل سيتحقق الهدف المنشود كما تحقق أثناء العمل المسلح؟ أسئلة تحتاج إلى تأمل.

بيبليوغرافيا:

(1) : عامر رخيلة ، الثورة الجزائرية والمغرب العربي، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954 ، الجزائر، العدد الأول ، 1999 ، ص164..

(2) :وزارة الثقافة والإعلام ، ملفات وثائقية : نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962) ، قسنطينة ، مطابع النصر ، 1976 ، ص ص (15_16).

(3) : أحمد الخطيب ، حزب الشعب الجزائري ، الجزء الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الرغاية ، 1986 ، ص97 .

(4) : عبد الرحمن بن ابراهيم بن العقون ، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر ، الجزء الثالث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص 56 .

(5) :وزارة الثقافة والإعلام، مرجع سابق ، ص 07.

(6) : محمد العربي الزبيري ، الخطوات الأولى في التطبيق الميداني لأهداف الثورة ، المصادر ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954 ، الجزائر، العدد الثاني ، 1999 ، ص 51.

(7) : عامر رخيلة ، ، مرجع سابق ، ص 139.

(8)-http://www.albadil.org/article.php3?id_article=8

(9) : وزارة الثقافة والإعلام، مرجع سابق ، ص 15.

(10): أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988.

(11): عامر رخيلة ، ، مرجع سابق ، ص 153.

(12): المرجع نفسه ، ص 155.

(13): المرجع نفسه ، ص51.

(14) :يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرينن ، دار البعث للطباعة والنشر ، الجزائر ، 1980 ، ص 357..

(15): عامر رخيلة ، مرجع سابق ، ص 163.

(16): المرجع نفسه ، ص163.

(17): وزارة الثقافة والإعلام، مرجع سابق ، ص 70.

(18): الدبلوماسية الجزائرية من 1830الى 1962 ، مداخلات ومحاضرات انجاز المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954 ، الجزائر ، 1998 ، ص 72.

(19) - http://www.albadil.org/article.php3?id_article=8

(20): أحمد توفيق المدني، مرجع سابق ، ص 214.

(21): زغيدي محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية1956-1962، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1989، ص 144.

(22)-http://www.albadil.org/article.php3?id_article=8

(23): الأسلاك الشائكة المكهربة، بحوث و دراسات الملتقى الوطني الأول حول الأسلاك الشائكة والألغام ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954 ، الجزائر، ص40.

(24): عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 427.

(25) : محمد حربي ، جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع ، ترجمة كميل قيصر داغر، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1983 ، ص 17

(26):سليمان الشيخ ، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين ، ترجمة محمد حافظ الجمالي ، الدار المصرية اللبنانية ، بيروت ، 2003، ص 121.

(27): محمد حربي ، مرجع سابق ، ص 178.